أعلام العرب

٣٨

أبو العلاء المعرّي

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والأنباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هـــذه الترجمة

لم يكن من الهين علىّ ، أن أجمع حياة أبى العلاء فى كتاب واحد . فحياته طويلة حافلة خصبة ، وكان الرأى عندنا ألا تؤرخ جملة ، قبل أن نفرغ من بحوث مفردة لكل جانب منها . وقبل ذلك ، يجب أن يكون تراثه بين أيدينا محققا ، لأنه الذى يعطينا مادة درسه ، ويضىء لنا فهم شخصيته .

ونحن لما نفرغ من نشر نصوص محققة لكل ما وصل الينـا من تراث أبى العـلاء ، كما لم نفرغ بعد من دراسـة جوانب شخصيته الرحبة على وجه التخصص ، ومن ثم كنت أفضل أن أرجىء تقديم هذا الكتاب ، لولا أنى كرهت ألا ألبى الدعوة الى كتابة ترجمة موجزة لأبى العلاء ، تقدمه الى جمهرة قراء العربية ، بعد أن حجب عنهم طويلا ، أو صور لهم على غير حقيقتـه التى تقدمها لنا آثاره .

وأنا أكتبها اليوم ، بعد طول صحبة لأبى العـلاء فى تراثه ، وتخصص فى تحقيقه ودراسته ، واذا كانت طبيعة المجال فى مثل هذه الترجمة ، لا تسمح باعطاء كل مصادر المـادة ومراجعها ، ولا تتسع لتفصيل المقدمات التى انتهت بنا الى رأى أو نتيجة ، فانى لأرجو أن يطمئن القارىء الى أن ما نقدمه اليه من هـــذه الترجمة الموجزة ، انمـا يعتمد أصـالة على ما تم لنا من درس

لأبى العلاء ، واستقراء لمصادر هذا الدرس ، من آثاره وأقوال مؤرخيه .

وبعد فلست أرى أن أتعجل فأقدم أبا العلاء الى القراء فى كلمات من هذه المقدمة ، على نحو ما يفعل كثير من كتاب التراجم . بل أوثر أن أدع أبا العلاء يقدم نفسه فى هذه الترجمة التى اتخذناه فيها دليل الرحلة . ذلك لأنه بين أدباء العربية ، يمكن أن يقال انه الوحيد الذى نستطيع تنسيق أدبه فى صورة مذكرات لحياته ، وقد حرصت أشد الحرص ، على أن أترك له مهمة الحديث عن نفسه منذ وعى الى أن رحل عن الدنيا ، وأن أنقل الى القراء صوته فى كل خطوة من رحلة الحياة ، دليلا أمينا صادقا .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطىء)

مصر الجديدة { رمضان : ١٣٨٤
{ يناير : ١٩٦٥

الفصل الأول

قبل المولد

الوراثة:

- أجداد وآباء

تنوخ ، بنو الشالحي ، آل سليمان

- أخوال

بنو سبيكة

- الوالد ، الأم ، الإخوة

أجداد وآباء

أتمشى القوافى تحت غير لوائنـــا
ونحن عـــلى قـوّالهـــا أمراء
وما سلبتنا العـــزّ قط قبيـــلة
ولا بات منـــا فيهم أسَراء
ولا ســـار فى عرض السماوة بارق
وليس له من قومنـــا خفراء
(سقط الزند)

خرج الى الدنيا والشمس غاربة والنهار مدبر ، وكانت ليلته الأولى على الأرض من ليالى المحاق ، ولولا مولده فى بيت علم وفضل ، لطويت تلك الليلة فى غيابة الزمن ، ولضاعت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذى قدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت اليه تاريخنا الأدبى فيسجل أنفاسه منذ شب عن الطوق .

ذلك أنه حين ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ربيع الأول ســـنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، لم يكن فى حساب التاريخ ذلك الأديب الأكبر الموعود بالمجد ، ولا كان لأحد من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد ، سوف يغدو أشهر من ينسب الى « معرة النعمان » فلا تذكر فى كتب البلدان والرحلات والتاريخ الا مقترنة

باسمه ومعرفة به ، مع أنها لم تكن مجهولة قبل مولده ، فقد ذكرها « البلاذرى » فى (فتوح البلدان) « وابن حوقل » — من جغرافيى القرن الرابع — فى (المسالك والممالك) « والواقدى » فى (فتوح الشام) .

كل ما فى أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجد معرق فى الفضل ، وآباء كرام منجبين ، فيهم ميراث بنى الساطع وعز تنوخ .

* * *

وتنوخ قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جد العرب العاربة ، ويمضى النسابون بها الى بعيد ، فيصلونها بهود بن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانت تنوخ بطونا من تيم اللات القضاعى القحطانى ، سميت بذلك لأنها تنخت من قديم بالشام ، أى أقامت ورسخت . ويقال انهم الذين اختطوا الحيرة وكانوا أول من عمّرها ونزلها ، وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة ، وماضيهم حافل بالعزة والقوة والاباء ، وكانت لهم فى الجاهلية وقائع ظافرة مع الفرس ، ويشهد المؤرخون لتنوخ بأنها « كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا » .

وكذلك كانوا فى الاسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرهم فى جند الفتوح عددا ، وقد أبلوا فى قتال الفرس بلاء مشهودا حمية للعرب ، وان كانوا على دين النصرانية . وفى تاريخ

الفتوح أنهم أبوا — مع ذلك البلاء فى قتال الفرس — أن يؤدوا الجزية ، أنفة واعتزازا ببأسهم وبلائهم ، فلما سار « عمر » رضى الله عنه الى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم الا بالاسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأبوا عليه وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية . فأبى « عمر » ثم أجابهم الى أن يأخذها على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبى العلاء ، وأسلم بعضهم فى أيام أبى عبيدة بن الجراح ، وبعضهم فى أيام المهدى بن المنصور أبى جعفر العباسى . أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا الى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسان .

* * *

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوت المعرة ، أعز بطون تنوخ ، « وهم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والفضل » واسم الساطع : « النعمان بن عدى » قيل انه لقب بالساطع لجماله وبهائه ، وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت تنوخ على أيامه بالدواسر ، لما ظهر من شدتهم وبأسهم .

وبعض المؤرخين يقولون ان « معرة النعمان » تنسب اليه ، وآخرون يذهبون الى أنها منسوبة الى « النعمان بن بشير الأنصارى » وكان واليا على حمص وقنسرين فى عهد معاوية

وابنه يزيد ، فخرج ابن للنعمان فى رحلة صيد الى أجمة كانت موضع المعرة ، فافترسه سبع فجزع عليه أبوه النعمان ، وبنى له منزلا عند قبره ، فبنى الناس لبنائه وعمرت البلدة ونسبت اليه .

* * *

وبيت أبى العلاء ، من بنى سليمان بن داود بن المطهر ، سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان » وسليمان هو الجد الخامس لأبى العلاء ، ولى حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة ، ثم تولاه من بعده ولده أبو بكر محمد ، جد والد أبى العلاء ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبرى :

بأبى يا ابن سليمان لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبانا لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أضحى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا وفراتا وبليخا
واجدا منك متى استصرخ للمجد صريخا
فى زمان غادر الهمّات فى الناس مسوخا

وخلفه على قضاء المعرة بعد وفاته سنة ٣٣١ هـ ، ولده أبو الحسن سليمان بن محمد ، ثم تولى معه قضاء حمص أيضا ، وكان محدثا فاضلا شاعرا ، ومن شعره فى الناعورة :

وباكية على النهـر تئن ودمعهـا يجرى
تذكرنى بأحبـابى وحالى ليـلة النفر
وأذرى مثل ما تذرى وأسعدها وما تدرى
على فقدى لأحبابى وما قد فات من عمرى
فما هى فيه مشهور وما أنا فيه فى الستر
كأنى فى بسيط الأر ض بين الناس فى قبر

والقاضى أبو الحسن سليمان ، هو جد أبى العـلاء . توفى بحمص وهـو على قضـائها فى جمـادى الأولى سنة ٣٧٧ هـ وأبو العلاء فى الرابعة عشرة من عمره .

وجدّة أبى العلاء لأبيه : أم سلمة ، بنت أبى سعيد الحسن ابن اسحاق بن بلبل المعرى . ولى أبوها قضـاء المعرة ، وكانت تروى الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العـلاء سن الطلب . وعدّها « ابن العديم » فى (كتاب الانصاف والتحرى) بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث .

فى هذا البيت الكريم الماجد ولد أبو العـلاء ، ومن تلك السلالة المعرقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب ، تلقى ميراثه . وقد كان بعد أن شبّ ووعى بادى الاعتزاز بقومه وآله ، حريصا على تتبع مناقبهم ومفـاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم شعر نابض بالحب والفخر والولاء ، منه قوله فى قبيلته :

أتمشى القوافى تحت غير لوائنا
ونحن على قوّالهـا أمـراء

وأى عظيم راب أهـــل بلادنا
فانا عـلى تغييره قدراء
وما ســـلبتنا العـزّ قط قبيلة
ولا بات منـــا فيهم أسَراء
ولا سار فى عرض السماوة بارق
وليس له من قومنـــا خفـراء

أخواله

كأن بنى سبيكة فوق طير يجوبون الغوائر والنجادا
(سقط الزند)

أما خئولته ففى بيت معروف من بيوتات حلب . جده لأمه : محمد بن سبيكة ، وخالاه أبو القاسم على وأبو طاهر المشرف[1]. وكانت صلته بهما وثيقة ، ولهما فى تراثه ذكر خاص ، ينبض بالمودة والاكبار . ونفهم منه أن أبا القاسم كان من أعيان التجار ، أما أبو طاهر فكان من شيوخ العربية .

ففى ديوان سقط الزند ، قصيدة مطولة أرسلها الى خاله أبى القاسم على ، وكان قد سافر الى المغرب فأطال الغيبة ، ومما قال فيها :

تفدّيك النفوس ولا تفادى
فأدنِ الوصل أو أطل البعادا

(١) ذهب الأستاذ محمد سليم الجندى ، فى كتابه (الجامع) الى أن أبا طاهر هو ابن خال أبى العلاء « على أبى القاسم » وكان اهم ما استدل به ، رسالة كتبها أبو العلاء الى أبى القاسم يعزيه فى أخ له اسمه أبو بكر ، وقال فيها : « والله يبقيه ولا يشقيه ، ويريه فى مولاى أبى طاهر وولده ما رآه فى ولده سعد والعشيرة .. »
ولم نطمئن الى ما ذهب اليه ، فليس ما يمنع من أن يعزى بالأخ الحى عن الأخ الفقيد .

أرانا يا علىّ وان أقمنـــا
نشـــاطرك الصبابة والسهادا
ولولا أن يظـن بنـا غلو
لزدنا فى المقـــال مـن استزادا
وقيـل : أفاد بالأســـفار مالا
فقلنـا : هل أفاد بهـا فؤادا ؟
وهل هانت عزائمـه ولانت
فقد كانت عزائكها شـــدادا
اذا ســارتكَ شهْبدُ الليل قالت
أعان الله أبعـدنا مرادا
وان جارتك هـوج الريح كانت
أكلّ ركائبا وأقل زادا
علام هجرت شرق الأرض حتى
أتيت الغـــرب تختبر العبـادا
وان تجد الديار كمـا أراد الـ
ـغريب ، فما الصديق كما أرادا
اذا الشعرى اليمانية استنـارت
فجدد للشـــآمية الودادا
ظعنت لتستفيـد أخا وفيـا
وضيّعت القـــديم المستفادا
تراسلك التنصـــح والقوافى
وغيرك من نعلمـــه الســـدادا

والى أبى القاسم على ، كتب أبو العلاء رسالته اثر انسحابه من بغداد ومن الدنيا ، فبكى فيها أمه التى ماتت قبل وصوله ، ونفض لدى خاله ما كان يثقله من همّ ويئوده من قهر وشجن ، واعتذر اليه عن عدم مروره بحلب ، فى طريق العودة من بغداد ، اعتذار مقصر محزون ...

وذكر خاله أبا طاهر ، فأثنى عليه أطيب الثناء ..

وختم رسالته بتحية حارة الى خاليه أبى القاسم وأبى طاهر فقال :

« وأنا أحمل الى مولاى ، أدام الله عزه ، والى مولاى أبى طاهر عضدنى الله ببقائه ، سلاما له نضرة الألاء وصفاء الماء وعذوبة الأرى وتتابع القطر وخلود النجوم وأرج العرار وتألق الوميض »

ولدينا كذلك من مجموع رسائل أبى العلاء ، رسالة أخرى كتبها وهو ببغداد ، الى خاله الشيخ أبى طاهر المشرف ، ومنها نعلم أنه كان مشتغلا بأمر (شرح السيرافى) لكتاب سيبويه فى النحو ، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبى العلاء مراسلات سابقة ، حول نسخ من شرح السيرافى بخطوط مختلفة ، أراد أن يعرف رأى أبى العلاء فى كل منها .

والرسالة تستهل بالاعراب عن شوق عميق لخاله ، وأسف لبعده ، وتذكر لماضى أوقاته معه « تذكر الفطيم ثدى الوالدة » وفزع الى نجدته ، وثقة بمكارمه ، وشكر على أياديه يتجدد مع النفس ثم قال :

« وفى هذا اليوم وصل كتابه فسررت به سرور الظمآن ورد نميرا والساهر صادف سميرا . وكان ما ضمنه من ذكر سلامته ، بشرى لها تخف الأحلام خفة القائل ولا يلام : (يا بشرى هـذا غلام) والله يمن باجتماع ليس بعده من ازماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحصّلة ، وهو أدام الله عزه ، الكريم المتكرم وأنا المثقل المبرم ... وقـد كنت قلت فى بعض كتبى الى سيدى : ان كانت الخطوط مختلفـة والأبواب مؤتلفة فلا بأس ... ما عـدا خط على بن عيسى — الربعى — فانه رجل اتكل على مافى صدره فتهاون باحكام سطره . وانمـا رجـوت ببركته — يعنى خاله — أن يرتفق أناس كمـا قال الله تعالى : (وشروه بثمن بخس دراهم معـدودة وكانوا فيـه من الزاهدين) ....

« وأنا والجمـاعة نهـدى الى سيدى الشيخ والى جميـع أصدقائه ، سلاما تأرج الكتب بحمله .. وحسبى الله »

* * *

وفى أخواله يقول :

كأن بنى سـبيكة فوق طير يجوبون الغوائر والنجـادا
أبالاسـكندر الملك اقتديتم فما تضعون فى بلد وسـادا

الوالد

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى، والجيب، والذيل والردن
فيا ليت شعرى هل يخفّ وقاره
اذا صار أحمد فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروىّ مبادرا
مع الناس ، أم يأبى الزحام فيستأنى
(سقط الزند)

أما أسرة الوليد — ونستعمل الأسرة بدلالتها المألوفة فى عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء فى رسالة الغفران وفى سقط الزند — فوالده عبد الله بن سليمان ، ولد سنة ٣٣٠ هـ وجده أبو بكر محمد بن سليمان على قضاء المعرة . وبعد عام واحد من مولد « عبد الله » ، توفى جده فخلفه أبوه على قضاء المعرة ، وولى معه قضاء حمص . وكانت لعبد الله أخت تزوجت فى آل المهذب المعرى ، وولدها أبو صالح محمد ابن المهذب ، من لدات أبى العلاء ورفاقه فى الدرس .

روى عبد الله الحديث عن جده وأبيه ، وعن عدد من شيوخ الشام فى عصره ، منهم الحافظ أبو بكر السبيعى نزيل حلب ،

وأبو عبد الله الحسين بن خالويه امام اللغة بالشام ، وعبد الله ابن محمد البغوى .

ويذكر عبد الله ، فى تاريخ المعرة وحلب : « فاضلا لغويا أديبا شاعرا » .

وقد أصهر الى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج « بنت محمد بن سبيكة » فى وقت لم يحدده الاخباريون ، وان كنا نستطيع أن نطمئن الى أن هذا الزواج كان حوالى عام ٣٥٠ هـ أو بعدها بقليل ، حيث نقرأ فى أخبار الأسرة ، أن أبا المجد محمد ، الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وأبوه فى الخامسة والعشرين من عمره . ومضت ثمانى سنوات قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما أحمد أبى العلاء سنة ٣٦٣ هـ . ثم ولد أخوه الأصغر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، سنة ٣٧١ هـ .

* * *

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأسرة أو مؤرخو أبى العلاء ، عن الحياة الخاصة للأسرة ، مما يمكن أن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبى العلاء من الزواج والمرأة ، الى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسى والمعنوى للبيت الذى تنفس فيه ، وعاطفة أبويه أحدهما نحو الآخر .

ونلتقط مع ذلك بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله ، نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه مكانة خاصة ، وتشده اليها عاطفة قوية معلنة ، فلما ماتت حزن

لفراقها حزنا شديدا ، بحيث ودّ لو أنه كان الميت ، وكانت هى التى تتقبل العزاء فيه :

مولاكِ يا مــولاة مولاها على
حـــال تسر عــدوه ، وتضره
ويودّه لــو كنتِ أنت مــكانه
فى الزائرين ، وأن قبرك قــبره

ويشهد نص آخــر من شعره ، أنه كان مشبوب العــاطفة مرهف المزاج رقيق القلب ، متفننا فى صنعة الشعر :

سمعتم بأجــور من ظالم أعلّ الفــؤاد وما عاده
وقــــد كان واعدنى مرة فأخلف يا قوم ميعـــاده

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا هذا الذى ذكروه عن علمه وفضله ، ورووا له من شعر ينم عن رقة قلبه وحــرارة عواطفه ، فنستطيع أن نميزها فى حديث ولده أبى العلاء عنه . وأبو العلاء لم يتحدث عنه الا فى مرثية واحدة ، تفيض بالاكبار والاجلال ، وتمثله لنا نقى الضمير واليد واللسان ، مهيبــا وقورا يتحاشى الزحام :

أبى حكمت فيــه الليــالى ولم تزل
رماح المنـــايا قادرات على الطعــن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى ، والجيب والذيل والردن
فيا ليت شــعرى هـــل يخف وقاره
اذا صار أحـدٌ فى القيامة كالعِهن

وهـل يرد الحوض الروىّ مبـادرا
مع النـاس أم يأبى الزحام فيستأنى
أمـرّ بربع كنت فيـه كأنمـا
أمر من الاكـرام بالحجـر والركن
واجـلال مغناك اجتهـادٌ مقصّر
اذا السيف أودى فالعفـاء على الجفن

ونعلم من أخبار أبى العلاء ، أن والده كان معلمـه الأول ، وعنه روى الحديث وتلقى دروسه الأولى فى علوم اللغة ، ومنه تلقى ميراثه الشعرى ، حيث يخاطبه فى مرثيته بقوله :

أمولى القوافى كم أراك انقيـادها
لك الفصحاء العُرْبَ كالعجم اللكن

وقد ظل يرعاه ، ويقوده على الطريق الى أن رزىء بموته . وفى سنة وفاته ومكانها ، اختلف الاخباريون ، فعند ياقوت أن عبد الله « توفى بحمص سـنة ٣٧٧ هـ » على حين يذكر « ابن العديم » أنه توفى بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ .

والراجح عندنا قول ابن العديم بوفاة والد أبى العلاء بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه فى موضعه من حيـاة أبى العلاء .